مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 30، جانفي 2022، ص - ص: 741 - 750
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

قضايا النقد الأدبي في مصنفات ابن حزم الأندلسي
Literary Criticism Issues in Collections of Ibn Hazam the Andalusian

طالبة دكتوراه نعيمة بوحالة[1] **أ.د/ مليكة النوي**
كلية اللغة والأدب العربي والفنون جامعة باتنة1
مخبر المتخيل الشفوي وحضارات المشافهة والكتابة والصورة
bouhallanaima79@gmail.com malika.noui@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2021/01/07 **تاريخ القبول: 2021/05/27**

الملخص:
عرف النقد الأدبي الأندلسي تطورا ملحوظا خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، وذلك بالاعتماد على نظيره المشرقي في إرساء قواعده الأولى، إلاّ انه استقل ليثبت وجوده وذاته المتأثرة ببيئته، وهو الأمر الذي قوى النزعة الأندلسية؛ ومعناها اعتزاز الأندلسيين بإبداعاتهم الفكرية والأدبية، والتي بدأت ملامحها تظهر في القرن الرابع متجسدة في كتب الطبقات والتراجم، والتي تعبر عن إحساس الأندلسيين بأنفسهم، ليتبلور هذا الإحساس بشكل أقوى وأكثر فاعلية عند ناقد عاش بين أواخر القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجري، وهو الإمام ابن حزم الأندلسي، الذي يمثل البنية الحقيقية للشخصية النقدية الأندلسية، إذ هو وصديقه ابن شهيد كوَّنا الأساس القوي، والقاعدة المتينة لكثير من الدراسات والقضايا الأدبية، التي اتخذها نقّاد القرن الخامس والقرون التي تلته منطلقا لأحكامهم، وأساسا لنظرياتهم.
وابن حزم شخصية عظيمة، دفعها حبها للعلم أن ترفع راية التحدي، وتثري المكتبة الأندلسية بدراسات كان لها أثرها على الحركة الأدبية والنقدية في الأندلس
الكلمة المفتاحية: القضايا؛ النقد الأدبي؛ المصنفات؛ ابن حزم.

Abstract:
The andalusian litutatry criticism had known a remarkabl development during the fourth and fifth hijri centuries, and that wa s depending on its eastian counterpart (the eastian litutary criticism) in applyin its basic roots, and then it became independent to prove its existing, and that was the reason behind the increase of the Andalusianism, which means the pride of the Andalusian in their intellectual and literature creativity, This phenomeno emerged during the fourth and fifth centuries in kind of classes and translations books, and then it increased more and more to be valid to a critic Imam lived in the late of the fourth century and the mid fifth Hijri century, this Imam known as Ibn Hazem, he played an important role in the development of a literature and critical Andalusian school This research aims to reveal the critical vision of Ibn Hazem through his critcs in all literary works, we attempt to discover this great outstanding figure who played a vital role in the florishment of literature in the Arabic and Islamic world . The Andalusian Imam Ibn Hazem who represents one of the greatest Andalusian outstanding figure with his friend Ibn chahid, they create the basis to a lot of studies and literary cases which were considered as a starting point and basis to many theories of the critics in the fifth century and the centuries that follows it.

[1]- المؤلف المرسل.

Ibn Hazem the great outstanding figure, his love to knowledge leads him to rich the andalusian library by his studies which had a great impact on the literary and critics movement in Andalusia also it has the merit for it has the merit for developing an andalusian literary and criticism school.
Keywords: the Vision; critcism; litutatry; the Andalusian Scientists; Ibn hazam.

مقدّمة:

لا شك في أن النقد الأندلسي تأثر بالنقد المشرقي، كما نهج أعلام النقد الأندلسي منهج بل مناهج من سبقهم من المشارقة، إلا أن هذا لا ينقص من الفكر الأندلسي الذي حاول أن يرسم خريطة تجعله يتميز عن المشارقة، وأن يترك بصماته في الأدب شعره ونثره وفي النقد وفي علوم مختلفة، لذلك أرد هذا البحث الانتصار للنقد الأندلسي بالبحث عن التميز والتفرد، فكان موضوع الدراسة ـ قضايا النقد الأدبي في مصنفات ابن حزم الأندلسي-.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في أن النقد الأندلسي أصبح محلا للخلاف بين كثير من الباحثين في الدراسات الأندلسية، فبينما يرى بعضهم أنه امتداد للنقد المشرقي يذهب الفريق الأخر إلى أن النقد الأندلسي مستقل تماما عن النقد المشرقي، وليس بينهما إلا رابط اللغة والدين، فالبحث يسعى لتحديد مدى استقلالية النقد الأندلسي أو تبعيته للنقد المشرقي، من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ماهي القضايا النقدية التي تناولها ابن حزم؟ ما هو موقفه منها؟
- هل كانت له نظرات خاصة؟
- هل كان النقد الأندلسي مستقلا عن النقد المشرقي أم هو امتداد له؟

الدراسات السابقة:

في إطار الدراسات السابقة لم أكن أول من تناول النقد في الأندلس، فالذين كتبوا في هذا المجال كُثرْ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: مخطوط دكتوراه بعنوان: اتجاهات النقد الأدبي في الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين، إعداد الطالبة: أميمة إبراهيم أحمد الجار دلو، إشراف الأستاذ: عز الدين الأمين، قسم اللغة العربية، السودان، 2008 إضافة إلى مقال بعنوان: ابن حزم مؤسس علم نقد الكتاب المقدس، أحمد الدبش، موقع مدونات، 2018. ومقال: صناعة الحب ابن حزم الأندلسي أنموذجا، رشيد طالع، مارس 2019، مؤسسة مؤمنون بلا حدود. فهذه الدراسات وغيرها كانت كافية في إنارة الطريق أمام الباحثين.

أهمية الدراسة:

تتجلي أهمية الدراسة فيما تناوله البحث من آراء نقدية، عند أحد أقطاب النقد الأندلسي، إنه ابن حزم الذي حمل لواء الدفاع عن الإبداع الأندلسي، وكان له الفضل في نمو مدرسة أدبية نقدية أندلسية.

أهداف الدراسة:

يسعى هذا البحث إلى رصد القضايا النقدية في بعض مصنفات ابن حزم من خلال نماذج متنوعة، وقد جاءت مبثوثة في مجموع ما طرحه ضمن آثاره الأدبية، كما يهدف البحث إلى الكشف عن أعظم شخصية أدبية أسهمت في ازدهار الأدب ونقده في العصر الأندلسي.

أولا- القضايا النقدية عند ابن حزم الأندلسي:

1- الأخلاق والشعر: أخضع ابن حزم الإبداع الأدبي خاصة الشعر للقيم الدينية بشكل مطلق، فما كان موافق للمبادئ الأخلاقية فهو مقبول وما كان منافيا لها فهو مرفوض، لذلك قبل بعض الأغراض الشعرية

وأعرض عـن أخرى، مستندا في رأيه على الميزان الفقهي فـي قبول ما يقبل وفـي رفض مـا يُرفض كالتحليل والإباحة والتحريم والنهي ... الخ، لـذلك يقول: "وان كان مع ما ذكرنا رواية شيء مـن الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير كأشعار حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ﷺ، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك فإنهـا نعم العـون علـى تنبيه النفس وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

أحدهمـا: الأغـزل الرقيق فـإنها تحث علـى الصبابـة، وتدعـو إلـى الفتنة، وتحض علـى الفتوة وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات (...)، والضرب **الثاني**: الأشعار المقولة في التصعلك، وذكر الحـروب كشعر عنترة وعروة بن الورد (...) فإن هذه الأشعار تثير النفوس، وتهيج الطبيعة (...)، والضرب **الثالث**: أشعار التغرّب وصفات المفاوز والبيد المهامة، فإنها تسهل التحول والتغرب (...)، والضرب **الرابع**: الهجاء فإن هـذا الضرب أفسد الضروب لطالبه، فإنـه يهون على المرء الكون فـي حالة أهل السفه (...).

وصنفان من الشعر لا ينهى عنهما نهيا تامـا، ولا يحض عليهما بل هما عندنا مـن المباح المكروه وهما المدح والرثاء، فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممـدوح (...)، وأمـا كراهيتنا لهما فإن أكثر مـا فـي هذين النوعين الكذب، ولا خير فـي الكذب"[1]. فهـذه النظرة المزدوجة قائمة على أساس الصدق وخلافه.

لقد بالغ ابن حزم فـي موقفه من أشعار التصعلك، والتغرب وذكـر الحروب؛ لأن في هذه الأشعار دروسا ومواعظ، وعبر في الصبر، وشحذ الهمم.

ولابن حزم الحق فـي رفضه لأشعار الهجاء خاصة المفحش والممجوج فطرة، ولكـن لا يجب أن نغفل من الهجاء ما كان وقودا لحروب الدعوة الإسلامية في أيامها.

كما أن المتأمل في كلام ابن حزم القائم علـى رفض بعض الأغراض الشعرية لا يجد فيه تحليلا للقيم الفنية على أساس أخـلاقي وإنما يحـاول توضيح تأثيراته التربوية على أساس مـن التحليل المنطقي العقلاني وإن كـان هـذا لا ينفـي تمسكه بالشعر المحقق للقيم الأخلاقية، وهـذا أمـر طبيعي بالنسبة لفقيه ومفكر، وداعية إلى منهج في العلم والحياة، يحقق السعادة في الدنيا والآخرة .ومـن هنا فإن قيمة الشعر عند ابن حزم " ترتبط بمـدى حرصه وتحقيقه للغاية التربويـة والأخلاقيـة وبمـدى إرضائه للقيم الدينية العليـا ؛ أي أن قيمته الجماليـة متصلة بقيمته الأخـلاقيـة، ومعنـى ذلك أن الفضيلة شيء جميل متعشق على عكس الرذيلة، فهي صفة ممقوتة متسخطة"[2].

2- الصدق والكذب في الشعر: في قضية الصدق والكذب في الشعر يتبنى ابن حزم المعيار الأخـلاقي، وبناء على ذلك يرى أن الشعر فـي أغلبه مبالغات وأكاذيب لا أساس لها فـي الواقع، لذلك راح يدافع عـن موقفه هـذا مستخدما الكذب معيارا لتقويم الخيال عند شعراء الغزل في تصويرهم لمعاني الحب، فسخر منهم لسعـة خيالهم، وبعـد أفاقهم، فرفض شعرهم جملة وتفصيلا؛ لأنهم يقولـون "أشياء لا حقيقة لها وكـذب لا وجه له، ولكل شيء حـد، وقـد جعل الله لكل شيء قدرا، والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها ولخرج عن حد المعقول، والسهر قـد يتصل ليالي ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك"[3].

يعيب ابن حزم على شعراء الغزل كذبهم ومبالغتهم التي لا وجه لها في الإفراط بصفة النحول وعدم النوم البتة، وانقطاع الغذاء جملة، لذلك فهو يكره الكذب حتى في الشعر؛ لأن الأمور إذا خرجت عن حد المعقول لا تصدق، ولا تجد لها التأثير المطلوب في النفوس، وعلى هذا الأساس يقر ابن حزم بمبدأ الصدق في الشعر، منطلقا فيه من نزعته الأخلاقية، فقد أعلى مـن مبدأ الصدق حتى جعله على رأس الفضائل الإنسانيـة كلها في كل مؤلفاته، وبخاصة فـي كتابـة "الأخلاق والسير في مداواة النفوس)، وهو صادق مع

نفسه في كل ما كتب؛ لأنه لم يكتب ملقا لأحـد أو بغية كسب دنيوي بل إن كتبه لم يرض عنها أكثر الخاصـة والعامة فـي الأندلس، وقد تكالبوا عليها وأحرقوها لمخالفتها لمعارفهم ومناهجهم.

وتأسيسا على مبدأ الصدق دعا ابن حزم إلى الاقتصاد فـي استعمال المجـازات والاستعـارات والتشبيهات وكل ضروب الصنعة، فهو يحب التوسط والاعتدال في كل شيء.

كما يخرج ابن حزم المواعظ والحكم والمدائح النبوية عن حد الشعر؛ لأنهـا تقوم على الصدق بينما الشعر يقوم على الكـذب، لـذلك استبعد الشعر فـي المنهج التربوي، ونهى عن الإكثار من روايته ؛لأن معظمه أكاذيب، لقول الرسول ﷺ: "لأن يمتلئ جوف أحـدكم قيحا خير له مـن أن يمتلئ شعرا"[4]، لذلك حدد ابن حزم القـدر الصالح للمرء مـن الشعر حين تحدث عن القدر الصالح للمرء مـن العلوم، حيث قال: "وأمـا علم الشعر فإنه على ثلاثـة أقسام : أحدهما : ألا يكون للإنسان علم غيره فهذا حرام، والثاني : الاستكثار منه فلسنا نحبه وليس بحرام (...)، والثالث : الأخـذ منه بنصيب، فهذا نحبه ونحضّ عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم استنشد الشعر (...)، وقال: (إن من الشعر لحكما) (...)، فهذا المقدار هو الذي يجب الاقتصار عليه من رواية الشعر"[5].

وهنـا يشير ابن حزم إلى القـدر المناسب للمرء في حفظ الشعر والانشغال به، فـذكر ثلاثة أقسام:

القسم الأول: لا يجوز للمرء أن يحفظ الشعر وحده، ويقدمه عن باقي العلوم خاصة علوم دينه؛ لأن ذلك حرام كما أمرنا الرسول الكريم.

القسم الثاني: ألا يكون حفظه للشعر يفوق حفظه لعلوم دينه، أما القسم الثالث: فالأخـذ من الشعر بنصيب خاصة تلك الأشعار التـي تربـي وتنمـي أخلاق المـرء، مثل الحكم والمواعظ لـذلك قال ابن حـزم: "الشعر كذب إلا ما جـاء مجـيء الحكم والمواعظ"[6]، إضافة إلى ذلك رواية الشعر الـذي يفيد فـي دراسة علوم اللغة.

لقد كـان ابن حزم واضحا في موقفه من قضية الصدق والكذب في الشعر، فهو يميل إلى صدق التجربة والاعتدال في التصوير، وبراعـة التعبير، فقيمة الشعر عنده ترتبط ارتباطا وثيقا بالغاية التربوية والأخلاقية فهو يدعو كـلا من المبدع والمتلقـي إلى تمثل القيم السامية في نشاطها من أجل تحقيق الفضائل.

وابن حزم يعلم أن الصدق فـي الحقيقة الأدبية هـو الصدق الـذي لا نعتمد في إثباته على برهـان، بل تكسبه العاطفة حيا نابضا، وينهض بنفسه على نفسه دليلا على صدقه وهـذه العاطفـة ارتبطت بالخيـال الشعري، وصارت قوته وصدقـه؛ لأنه "هـو الـذي يصورهـا ويبعثهـا فـي نفوس القـراء والسامعين وقوتها مرتبطة بقوته - الخيال- قوة وضعفـا، فإذا كانت صادقـة قويـة أنشأت خيالا رائعـا، وإذا كانت ضعيفـة سقيمـة كـان الخيـال هزيلا سخيفا"[7]. فلما ضعف ذلك الخيـال، وهزلت تلك العاطفـة قال الشاعر[8]:

اللّيْلُ لَيْـلٌ والنَّهَـارُ نَهَـارٌ ✲ والبَغْـلُ بَغْـلٌ والْحِمَـارُ حِمَـارٌ

والـدِّيْـكُ دِيْـكٌ والْحَمَـامَـةُ مِثْلَـهُ ✲ وكِلاَهُمَا طَيْرُ لـهُ مِنْقَـارُ

فلما سمع ابن حزم قـول الشاعـر سخر منه وهـزأ به، ووصفـه بالحمق والسذاجة، ولما قوي الخيـال وعظمت تلك العاطفة قال الشاعر[9]:

أَلِفَ السَّـقَامُ جِسْـمَهُ والْأَنِيْنُ ✲ وبَراهُ الـهَوى بِمَـا يَسْـتَبِيْنُ

وهو ما نال القبول عند ابن حزم والإعجاب.

ولو وافقنا ابن حزم في موقفه من قضية الصدق والكذب في الشعر الذي التزم فيه بالصدق الحقيقي فأين ذلك الصدق لما نُعي إليه ما كان يحب، حيث أنشد أبياتا[10] متحسرا متلهفا على المحبوبة الفقيدة:

ودِدْتُ بِأَنَّ ظَهْرَ الأَرْضِ بَطْنَ ✲ وَأَنَّ البَطْنَ صَارَ مِنْهَا ظَهْرَا
وانْ مِـــتَّ قَبْلَ وُرُوْدِ خَطْبٍ ✲ أَتَـى فَأَثَارَ فِي الأَكْبَادِ جَمْـرَا
وأَنَّ دَمِـــي لِمَنْ قَدْ بَانَ غُسْلُ ✲ وأَنَّ ضُلُوْعَ صَدْرِي كُنَّ قَبْرَا

فهل يعقل أن يقلب أحدنا الأرض رأسا على عقب، ويتمنى الموت حقيقة من أجل فراقه من يحب، وأن تغسل بدمه، وتكون ضلوعه مثوى أخيرا لها؟

إن هذه القصيدة وما يشابهها من قصائد ابن حزم لا تُحمل على محمل الصدق الحقيقي الـذي نادى به ابن حزم وإنما تحمل على ما فيها من صدق فني، وإيمان من الشاعر بالنوايا والأحاسيس التي تربطه بموضوعه، وتجذبه إليه، فنقل لنا أصدق المشاعـر والأحاسيس والانفعالات التي تملكته حين سمع خبر وفاة من أحب.

وعندما نفكر فـي مصادر هـذا الإحساس لا نجد له سبيلا؛ لأن النفس الإنسانية هي الحكم "وإن ما تقبله النفس فهو المقبول، وما ترفضه فهو المرفوض، وإن العبرة في المعاني الشعرية ليس بصدقها وكذبها بل بقبول النفس لها، وبمقدار ما تثيره النفس من أحاسيس"[11].

3- صناعة الشعر: تحدث ابن حزم عـن الشعر في رسالته (التقريب لحد المنطق) وقال عنه: "هو صناعة قال فيها الحكماء : كل شيء يزينه الصدق إلا الساعي والشاعر فإن الصدق يشينهما"[12].

إن الشعر حسب رأي ابن حزم صناعة تحتاج إلى مجموعة من الآليات، التي تبرزه في صورة متميزة قابلة للتعبير عـن تجربة الشاعر، والتأثير في المتلقي، وحتى تكتمل هـذه الصناعة لابد مـــن مراعاة ما يتعلق بها من "نحو وصرف، وأوزان وتراكيب، وروي وقـافيـة، وحسن التصوير والتمثيل والتحليق عن المعاني، والكناية عنها، فهذا يحـــقق حسن التأليف"[13]، ويدل على مـدى حـذق الشاعر ومهارته الفنية.

هذا يعني أن ابن حزم يقر بمـذهب التهذيب والتنقيح بغية التجويد في الصنعة دون أن ينكر أهمية الطبع في العملية الإبداعية، حيث يقول عن الطبع في مجال حديثه عن البلاغة: "أن كثرة المدارسة لا تكفـي، ولا تصنع بليغا إذا فقد الإنسان الطبع والموهبة الفطرية السليمة التي تؤهله لاستحقاق صفـة البلاغة"[14].

إن الإنسان لا يمكن أن يصبح شاعرا بمجرد معرفته لقوانين وأصول هـــذه الصناعة ـ الشعر ـ بل لا بد من طبع أصيل يقويه بما يتمتع بـه من ثقافة واسعـة، أجهد عقله فـي اكتسابها، حتى يتمكن من صقل الموهبة وصولا إلى الجودة والإبداع؛ لأن "الطبع لا ينفع مع عدم التوسع في العلوم"[15]، ما جعله يدعو إلى الجمع بين الطبع والثقافة.

وظيفة الشعر عند ابن حزم: الشعر عند ابن حزم مرآة صادقة، وسجل ثري جمع مراحل من حياته، وترجم أبعادا فنية وجمالية عكست ما وصله الأدب المغربي عامة والأندلسي بخاصة. حملت أشعاره مشاعر وعواطف تجاه المرأة والطبيعة، كما عبرت هذه الأشعار عن اغترابه وحبه للأهل والديار.

كتب ابن حزم في الزهد والرثاء والوصف والغزل، واتسمت أشعاره بالعمق والصدق والواقعية، ولإيمانه بأن الأخلاق مبدأ وأساس في كل شيء فقد بنى شعره عليه، فربط صورة الحب بالعفة فقال:

جاءَ تحْرِيُم الهَوَى عنْ محمد وهل منْعُهُ في مُحْكَمِ الذِّكْرِ ثَابِتُ[16].

فالحب في نظره لم تحرمه الشرائع السماوية، ولا مناهج العقول السوية، وخير مثال سيرة المصطفى ﷺ التي بنيت على حب الذات الإلهية، وللمثل الأخلاقية.

ومن أشعاره في وصف الطبيعة قوله:

ولَاحَ فِي الأُفقِ قَوْسُ اللهِ مُكْتَسِيا من كل لونً كأذناب الطواويس[17].

فقوس قزح بألوانه المتدرجة الزاهية التي تسحر النظر يشكل صورة تشبه في ألوانها وتموجاتها ذنب الطاووس، وهي صور طبيعية بألوان ربانية تعكس شغف ابن حزم إلى النزوع نحو تتبع تفاصيل الأشياء وجزئياتها.

4- اللفظ والمعنى: ترتبط قضية اللفظ والمعنى عند ابن حزم بآرائه في المنطق والفلسفة، فاللغة عنده هي " ألفاظ يعبر بها عن المعاني (...)"[18]، وما دامت الألفاظ هي التي تحمل المعنى وتنقله إلى المتلقي لابد أن تكون دقيقة لا لبس فيها، تنقل الأفكار بطريقة واضحة حتى يتسنى للمبدع تحقيق الفاعلية الإفهامية، والوظيفة التأثيرية لدى المتلقي، والخطاب الإبداعي لكي يكتسب صفة الوضوح لابد أن تتوافق ألفاظه مع معانيه حيث يقول ابن حزم: "وثبت في العقول أنه لا بيان إلا بالألفاظ المعبرة عن المعاني التي أوقعت عليها في اللغة"[19].

ينفي ابن حزم صفة البيان إلا عن الألفاظ التي استعملت في معانيها التي وضعت لها في أصل اللغة، وبما أن اللغة توقيفية في رأيه "فالله عز وجل هو الذي يعين أسماء الأشياء"[20]، "ولا يجوز للإنسان تغير دلالات هذه الأسماء، أو ينقلها إلى معان جديدة لم تكن موضوعة لها من قبل، لأن ذلك يؤدي إلى الغموض، وعند ابن حزم إفساد للبيان الذي يقع به التفاهم"[21].

فالمبدع حسب رأي ابن حزم مقيد في استعمال الألفاظ؛ لأنه ينفي صفة الانزياح عن اللغة ويجمد الطاقة التعبيرية للفظ، وتعدد مدلولاته من سياق إلى آخر، فكأن الدال يظل محتفظا بمدلوله المعجمي المتواضع عليه في أي سياق ورد فيه، وبذلك تُفقد جدلية الاستعمال التي "ترضخ عناصر اللغة إلى تفاعل عضوي، بموجبه تنزاح الألفاظ تبعا لسياقاتها في الاستعمال عن معانيها الوضعية"[22].

ويؤكد ابن حزم أن معرفة الحقيقة واليقين لا تكون إلا إذا تم انتقاء الألفاظ المعبرة عن المعاني التي وضعت لها في أصل اللغة "ومعيار الحقيقة لدى ابن حزم ليس في الألفاظ المتداولة، ولا في المعاني المعبرة عنها بتلك الألفاظ، وإنما يكمن في مدى مطابقة اللفظ للمعنى الذي وضع له"[23].

ويرى ابن حزم "أن أهل كل علم، وأهل كل صناعة لهم ألفاظ يختصون بها للتعبير عن مرادهم ويختصرون بها معاني كثيرة "[24].

ورغم ما يبدو من ظاهر القول أن ابن حزم قد قيد حرية الشاعر، وموهبته إلا أن المقصود من القول "أن لأهل كل صناعة ألفاظا" وأن الشاعر له حرية الحركة بهذه الألفاظ في الاتجاهات التي تخدم إبداعه من خلال توظيفها وفق ما تقتضيه المعاني.

فابن حزم على وعي تام بالعملية الإبداعية، وأن لكل شاعر سمات تميزه عن غيره، كما أن اختلاف الزمان والمكان يمثلان جاذبية تؤثر على الشاعر وتجعله ينحو منحى يختلف عن سابقيه ولاحقيه، بل وتجعل لغته الشعرية متفردة ومتميزة، مصبوغة بصبغة عصره.

من هنا أدرك ابن حزم شدة التلاحم بين اللفظ والمعنى، ومتانة العلاقة بينهما، وأن أي تغيير يصيب اللفظ يؤثر عن المعنى، وإذا اختلفت الحركات الإعرابية، أو وضعت في غير موضعها فإن المعاني تختلف تبعا لذلك، لهذا السبب أكد ابن حزم عن ضرورة الاطلاع على علم النحو، لأهميته في ضبط اللغة، والتعبير بطريقة سليمة من شأنها نقل الأفكار بأسلوب صحيح حيث يقول: "لما فشا جهل الناس

باختلاف الحركات التـــي باختلافها اختلفت المعانـي في اللغة العربية وضع العلماء النحو، فرفعوا إشكالا عظيما"[25].

لقد تنبه ابن حزم إلى أهمية النحو في تحقيق التلاحم بين اللفظ والمعنى، كما حرص على ضرورة الدقة فـي اختيار الألفاظ، ووضعها فـي مقامها المناسب، حتى تعبر عن المقصود - المعانـي- تعبيرا دقيقا وسليما، يبرز من خلاله الأسلوب في أبهى حلة.

5- القديم والمحدث: يتجلى موقف ابن حزم مـن قضية القديم والمحدث من خلال رأيه مـن لغة المحدثين، فهو يـرى أنه يمكن الاحتجاج بالشعر المحـدث مادام أنـه يجري على مذهب الأوائل، وقواعدهم اللغوية ويتضح هـذا في موقفه من شعر أبا الأجرب جعونة بن الصمة، حيث يقول: "ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي لن نباه به إلا جريرا والفرزدق، لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين"[26].

فابن حزم يقبل شعر المحدثين ما دام له في اللغة أساس مرتكز، ولا يخرج عن القياس، ومـــن ثم أبـاح الاستشهاد بشعر المحدثين، على عكس بعض النقـاد المشارقة "الـذين تعصبوا للقـديم ورفضوا شعر المحدثين، أمثال ابن الأعرابي والأصمعي، وإسحاق الموصلي الـذي يـرى أن أبا نواس ليس شيئا؛ لأنـه ليس على طريق الشعراء"[27]، وعمرو بن العلاء لا يفضل مـن الشعـر إلاّ مـا كان للمتقدمين، ولعل ذلك يعود لكونه رجل تدوين ورواية، فقد أراد أن يحفظ ويسجل نماذج يُحتذى بها، وبيانا به يقتدى"[28].

وما يثبت إعجاب ابن حـزم بالإبداع المحدث استعماله للمعانـي الفلسفية المبتكرة فـي شعره فالناظر في شعره الذي نظمه في (طوق الحمامة) يجد تأثرا واضحا بالمصطلحات الفلسفية والحكمة، وميلا قويا إلى الجـدل والإقنـاع، وهي الملامح المميزة لثقافـة ابن حـزم[29]، ومن أمثلة ذلك في شعره قوله[30]:

عَدِمْنَا دَلِيْـلاً في حُدُثِكَ شَـــاهِدا ✲ نَقِيسُ عَلَيْه غَيْرَ أنَّكَ مَرْئـــــيُّ

وَلوْلا وُقُوْعَ العَيْنِ في الكَوْنِ لمْ تَقُلْ ✲ سِوَى أنَّك العَقْلُ الرَّفِيْعُ الحَقِيقِيُّ

ومادام ابن حزم قد ضمن شعره بعض الألفاظ والمعانـي الفلسفية هذا يدل على أنه معجبٌ بهـا خـاصة المعاني البعيدة عـن التعقيد والإغـراب، والمساس بالعقيدة منها: الروح، النفس، الدليل، الشاهد، نقيس، العقل...، لأنه رجل دين.

كما يدعو ابن حزم إلى التخفيف مـن المقدمة الطللية، حيث يقول " للشعراء فن مـن الشعـــر يذمون فيه الباكي على الدمن..."[31]، ثم يقول[32]:

خَلِّ هَذَا وبَارِدِ الدَّهْرَ وارْحَـــلْ ✲ فِي رِيَاضِ الرُّبَى مَطِيَّ القِفَارِ

وَاحِدُهَا بِالبَدِيْعِ مِنْ نَغَمَاتِ الـــ ✲ ـعُوْدِ كيما تُحِثّ بِالْمِزْمَـــــارِ

إنَّ خَيْرًا مِن الوُقُوفِ عَلى الدَّا ✲ رِ وُقُوفَ البُنَانِ بِالأوْتَـــــارِ

وبعد هذه الأبيات تحدث قائلا: "ومعـاذ الله أن يكون نسيان مـا دُرس لنا طبعـا، ومعصية الله بشرب الـرّاح لنا حلقا، وكساد الهمة لنا صفة (...) ولقد أنشدتها بعض إخوانـي من أهل الأدب، فقال سرورا بها : يجب أن توضع هذه في جملة عجائب الدنيا"[33].

إن إعجاب ابن حـزم بالشعر المحدث والنظم على منوالـه لا يعني أنه يرفض الشعر القديم بل على العكس نجد أمثلة من شعره يسير في نظمه على طريقة القدماء، من ذلك قوله[34] في الربع:

أجَلْ هُو رُبْعٌ قَدْ عَفَتْهُ الرَّوَامِسُ ✡ فَهَلْ أنْتَ ويْبَ غَيْرَكَ حَـــابِسٌ
قُلْ لَهُ أنْ تَحْبِسَ العِيسْ سَاعَـــةً ✡ عَلَيْهِ فَتَبْكِي الرُّسُـوْمُ الطّوَامِسُ

إن الشاعر يستوقف الركب هنا على عادة شعراء الأطلال، ويوقف العيس ليسألها عما فعل الدهر بها ويأخذ العبرة مـن تقلبات الزمان، وتحول الأيام، فالقصيدة تسير على منوال القدماء في مراعاة جزالة اللفظ، والميل إلى القاموس المرتبط باللغة البدوية لذكر الأطلال، والعيس والرسوم والطوامس... الخ وذلك من أجل مناسبة المقام، فلغة البكاء على الأطلال والحنين إلى العيش الغابر هي اللغة المناسبة لحال ابن حزم.

من خلال ما سبق يتضح أن ابن حزم كـان معتدلا في موقفه من قضية القديم والمحدث، فقد راعى الزمن في تطور المعاني، واستحداث مضامين، وصور فنية جديدة من شأنهـا أن تحقق الجـودة، وتحافظ على طريقة الأوائل، لما تتضمن من صفات خلقية، ونزعة دينية.

6- السرقات الشعرية: لقد كان لابن حزم التفاتة نقدية حول قضية السرقات الشعرية، فقد ذكر (الموارد) واعتبرها نوعا من أنواع السرقة؛ لأنه يرى استحالة اتفاق شاعرين في بيتين فأكثر، حيث يقول: "وأما الـذي لاشك وهو ممتنع فـي العقل اتفاقها في قصيدة، بل فـي بيتين فصاعد، والشعر نوع من أنواع الكلام، ولكل كلام تأليف مـا، والـذي ذكره المتكلمون في الأشعار من الفصل الذي سموه الموارد وذكروا أن خواطر شعراء اتفقت في عدة أبيات، فأحاديث مفتعلة، لا تصح أصلا، ولا تتصل، وما هي إلا سرقات"[35].

في هـذا النص يرفض ابن حزم الموارد، ويعتبرهـا سرقة، والموارد هـي أن يتفق شاعران فـي المعنى، ويتوارد لفظاهما دون أن يلقى أحدهمـا الأخـر، أو يسمع بشعره، وهـي عند ابن حـزم سرقة إلا في اليسير مـن الكلمات حيث يقول: "وقد يقع في الندرة التي لم نكد نشاهدها اتفاق الخواطر على الكلمات اليسيرة، والكلمتين ونحو ذلك"[36].

في هذا النص يخالف ابن حزم النقـاد القائلين بتوارد الخواطر مـن غير قصد معتمدين فـي ذلك على ما ذهب إليه عمرو بن العلاء بقوله: "تلك عقول رجال توافت على السنتها"[37].

كما ذكر ابن حزم مصطلح الإغارة فـي قوله: "وذكروا أن خواطر شعراء اتفقت فـي عدة أبيات، فأحاديث مفتعلة لا تصلح أصلا، ولا تتصل، ومـا هـي إلا سرقـات، وغارات من بعض الشعراء على بعض"[38].

وابن حـزم يرفض الإغـارة التي تعني: "أن يصنع الشاعر بيتا أو يخترع معنـى مليحا، فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا، وأبعد صوتا، فيروى له دون قائله"[39].

لقد رفض ابن حزم السرقات الشعرية بكل مضامينها ومعانيها، ونظر إليها بمنظار الاستهجـان؛ لأنه درسها من الناحية الأخلاقية لا الفنية، ومع أنه من أصحاب الرؤية الأخلاقية للإبداع الأدبـي إلا أنه أجاز للمبدع أن يتوارد اليسير من الألفاظ في إبداعه؛ لأن الألفاظ ملك للجميع، ولكل مبدع طريقة ذاتية في صياغتها، وقد صدق علي بن أبي طالب حين قال: "لولا أن الكلام يعاد لنفد"[40].

خاتمة:

بعد هذه الرحلة مع أهم القضايا النقدية في مصنفات ابن حزم الأندلسي خلصت إلى مجموعة مـن النتائـج يمكن تلخيصها فيما يأتي:

- تناول ابن حزم قضايا نقديـة شغلت النقد قديمـا ولا تزال تشغله، منهـا : قضية الحكم على الشعر بين المعيار الفنـي والأخلاقي، ونراه ينتصر للمعيار الأخلاقـي مـن خلال إشارته لقضية الصدق والكذب، إلا أنه يقر أن الشعر صناعـة، ويدعو المبدع إلى أن يلمَّ بقواعـد هـذه الصناعة حتى يكون ماهرا فـي صناعة الشعر بكل جـودة وإتقان، ومـن آليات هـذه الصناعة الطبع والصنعة اللذان يتحدد مـن خلالهما مـدى قوة كل مبدع في صناعة الشعر، وتميز كل شاعر عن آخـر، فهناك شاعر الطبع وشاعر الصنعة،

وهناك الشاعر البارع الـذي يعلوهم مرتبة حسب رأي ابن حزم، وهو رأي تميز به، وتفرد به عن غيره من النقاد.

- لم يفصل ابن حزم اللفظ عـن المعنى أو المعنى عن اللفظ، بل وقف موقفا وسطا، ودعـا إلى ضرورة التلاحم بينهما؛ نظرا لأهمية هـذا التلاحم في صياغة العمل الأدبي صياغة فنية رائعة.
- لقد كان ابن حزم معتدلا في موقفه من قضية القديم والمحدث.
- يرفض ابن حـزم السرقات الشعرية مهما كان نوعهـا.
- لقد جـاءت نظرات ابن حـزم وملاحظاته النقدية مبثوثة هنـا وهنـاك فـي ثنايا آثاره، لم تنتظمها وحـدة عضوية، بحيث تشكل هيكـلا فكريا متناسقـا، قائما بنفسه، ذات معيار دقيق ومنهجية محكمـة، يصدر عنها فـي أحكامه، ويلتزمها عند تقييمه للآثار التي يعرض لها بالنقد.
- لم يكن نقد ابن حزم منقطع الجذور عن النقد المشرقي، ولم يكن خاليا من التأثر به والاستفادة منه، والاتكاء عليه، ويتفق معه في كثير من القضايا النقدية، لكن هـذا لا يمنع بأي حـال من الأحوال مـن القول بأن فـي آرائه موضوعية، وعمقا وحدسا بعيد النظر، يصور لنا مـدى النضج الذي بلغه البحث النقدي الأندلسي في عصره.

المصادر والمراجع:

1- بدوى طبانة (ت2000): السرقات الأدبية - دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها -، دار الثقافة، بيروت، لبنان ط3، 1984

2- ابن حزم (ت1064):

- الإحكام في أصول الأحكام، ج3، مطبعة العاصمة، القاهرة.
- رسائل ابن حـزم، التقريب لحد المنطق، تح: إحسان عباس، ج4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ط2، 1987.
- طوق الحمامـة في الألفـة والألاف، تح: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 2003م.
- فضائل الأندلس وأهلها، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديـد، 1986م.

3- حنفي شرف: النقد الأدبي عند العرب: أصوله، قضاياه وتاريخه، القاهرة، 1970م.

4- رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993م.

5- ابن رشيق (ت 1063): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد عبد القـادر أحمد عطا، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

6- عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط2، 1982م.

7- العياشي حدوش: حركـة النقد الأدبي في قرطبة، عصر الحجابة والفتنة: (أبو عامر بن شهيد أنموذجا) رسالة دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1988-1989م.

8- محمد مرتاض: النقد الأدبي في المغرب العربي - نشأته وتطوره- دراسة وتطبيق، اتحـاد الكتاب العـرب.

9- محمد مصطفى هدارة (ت 1997): مشكلة السرقات في النقد العربي - دراسة تحليلية مقارنة-، مكتبة الأنجلـو المصرية ط1، 1958م.

10- محمود شاكر محمود (ت1997): نقد النقد - دراسة في الأنموذج الأندلسي -، دار غيداء، ط1، 2016م.

11- مصطفى عبد الواحد - دراسة الحب في الأدب العربي-، ج 2، دار المعارف، القاهرة، 1972م.

12- وديع واصف مصطفي: ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق، المجمع الثقافي، 2008م.

الهوامش:

[1]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، التقريب لحد المنطق، تح: إحسان عباس، ج4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ط2، 1987، ص 67- 68.

[2]- رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993 ص 36.

[3]- العياشي حدوش، حركة النقد الأدبي في قرطبة، عصر الحجابة والفتنة (أبو عامر بن شهيد أنموذجا)، رسالة دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1988-1989م، ص62.
[4]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تح: فاروق سعد، ج1، دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان، 2003، ج1، ص357.
[5]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، التقريب لحد المنطق، ج4، ص 354.
[6]- المصدر نفسه، ج4، ص 354.
[7]- محمود شاكر محمود، نقد النقد ـ دراسة في الأنموذج الأندلسي ـ، دار غيداء، ط1، 2016، ص162.
[8]- حنفي شرف، النقد الأدبي عند العرب: أصوله، قضاياه وتاريخه، القاهرة، 1970 م، ص76.
[9]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، التقريب لحد المنطق، ج4، ص 354.
[10]- المصدر نفسه، ج4، ص 354.
[11]- محمود شاكر محمود، نقد النقد، دراسة في الأنموذج الأندلسي، ص168.
[12]- محمود شاكر محمود، نقد النقد، دراسة في الأنموذج الأندلسي، ص163.
[13]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، التقريب لحد المنطق، ج4، ص 206.
[14]- المصدر نفسه، ج4، ص 355.
[15]- المصدر نفسه، ج4، ص 205.
[16]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص45.
[17]- المصدر نفسه، ص 88.
[18]- المصدر نفسه، ج4، ص 2، 6-7.
[19]- المصدر نفسه، ج4، ص 282.
[20]- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج3، مطبعة العاصمة، القاهرة، ص531.
[21]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، التقريب لحد المنطق، ج4، ص 278.
[22]- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط2، 1982، ص58.
[23]- وديع واصف مصطفي، ابن حزم وموقفه مـن الفلسفة والمنطق والأخلاق، المجمع الثقافي، 2008 م ص 278.
[24]- ابن حزم، رسائل ابن حزم-التقريب لحد المنطق، ج4، ص 162.
[25]- المصدر نفسه، ج4، ص 94 -95.
[26]- ابن حزم، فضائل الأندلس وأهلها، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، 1986 م ص 20.
[27]- محمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي ـ دراسة تحليلية مقارنة-، مكتبة الأنجلـو المصرية، ط1، 1958، ص 210 -211.
[28]- محمد مرتاص، النقد الأدبي في المغرب العربـي ـ نشأته وتطوره ـ دراسة وتطبيق، اتحاد الكتاب العـرب، ص 84.
[29]- مصطفى عبد الواحد ـ دراسة الحب في الأدب العربي ـ، ج 2، دار المعارف، القاهرة، 1972م، ص282.
[30]- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تح: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 2003، ص67-68.
[31]- المصدر نفسه، ص 254.
[32]- المصدر نفسه، ص 255.
[33]- المصدر نفسه، ص 254.
[34]- المصدر نفسه، ص 116.
[35]- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص 97.
[36]- المصدر نفسه، ج1، ص 97.
[37]- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد عبد القادر أحمد عطا ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 289.
[38]- ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص 97.
[39]- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، ص 220.
[40]- بدوى طبانة، السرقات الأدبية ـ دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها-، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1984، ص42.